

التواجد الاسلامي في شمال إفريقيا و ممالك الخوارج

دخول المسلمين لشمال إفريقيا:

خرج عمر بن العاص على شمال إفريقيا في 643 م من مصر، و فتح طرابلس، و كان ينوي الاستقرار في المغرب لغاية فتح المغرب الأقصى. لكن عمر بن الخطاب طالبه بالعودة، نظرا للانشقاقات الحاصلة في المشرق العربي و تخوفه من الخسائر التي قد يتعرض لها الجيش الاسلامي في مواجهة البربر. ضف لذلك، أن الخلافة الاسلامية كانت في مواجهة مفتوحة مع الروم و الفرس في المشرق. لكن خلال خلافة عثمان بن عفان تجددت المحاولات من أجل قيادة حملة عسكرية نحو شمال إفريقيا. فخرجت الجيوش الاسلامية بقيادة عبد الله بن سعد، و الذي حقق انتصارات و أجبر العديد من قبائل البربر على دفع جزية مقابل السلام، و لكنه لم يستمر في القيادة بسبب خلافات قادت لعزله من منصبه و تعويضه ب عبد الله بن نافع و الذي عجز عن إجبار القبائل على دفع الجزية، ففر هاربا نحو الشرق. في سنة 666 م ، كانت المحاولة الثالثة من أجل فتح شمال إفريقيا، بقيادة عقبة بن نافع الذي قاد الجيش و أقام معسكرا في شمال إفريقيا. في 669 عين عقبة بن نافع واليا على القيروان، و استقر فيها. و لقد كانت القيروان موقعا استراتيجيا من أجل قيادة الهجمات في شمال إفريقيا بسبب بعدها عن السواحل، و بالتالي بعيدة عن مرمى العدو. لم يستمر عقبة بن نافع في قيادة الجيش، و تم عزله في 674 م، ليخلفه ابا المهاجر دينار الذي حكم لغاية 682 م، و استطاع الاستيلاء على قسنطينة في 678 م، و جعل من مدينة ميلة مركزا لقيادته في شمال إفريقيا.

بمجرد وصول يزيد بن معاوية للحكم، أعاد عقبة بن نافع على رأس الجيش، ليصبح واليا على أفريقيا في 682 م للمرة الثانية. قاد عقبة بن نافع الجيش نحو الأوراس و طنجة، ووصل لغاية المحيط الأطلسي، و في اثناء عودته، اشتبك مع مقاومة القائد البربري كسيلة في بسكرة، حيث انتهت المواجهات بمقتل عقبة نافع. تمكن كسيلة و بعض جنود الروم من احتلال المناطق الساحلية و طرد المسلمين منها، و قاموا باحتلال القيروان. خلال حكم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، تم تعيين زهير بن قيس واليا لإفريقيا، و قام بتنظيم صفوف الجيش و مواجهة قوات كسيلة، و لكنه لم يستقر فيها بل عاد إلى المشرق على أمل أنه قد قضى نهائيا على

التواجد الروماني، ولكن، أثناء عودته هاجمته قوات الروم و قتلته في 695 م. لكن الخليفة عبد الملك بن مروان أمر بتشكيل و تنظيم صفوف الجيش ثانية تحت رئاسة حسان بن النعمان، و الذي هاجم على قرطاجنة، و دخل تبسة، و بعدها اتجه للأوراس حيث اشتبك مع قوات الكاهنة البربرية و التي انتهت بهزيمته في 700 م. لكن في 701 م، أعاد حسان بن النعمان الكرة و هاجم الأوراس ليشتبك مع قوات الكاهنة للمرة الثانية، الأمر الذي قاد لقتلها في 701 م، لكن لم يستطع حسان بن النعمان الاستمرار في حملته بسبب عزله في 704 من ليحل محله موسى بن نصير. استطاع موسى بن نصير، بمساندة من طارق بن زياد فتح أغلب منطقة شمال إفريقيا و انضم له العديد من قيادات البربر و الذين ساعدوه في حملته العسكرية.

يمكن استخلاص ثلاثة نقاط أساسية ذات الصلة بالتواجد الاسلامي في شمال إفريقيا:

- دخول الجيوش الاسلامية لشمال أفريقيا استغرق سنوات عديدة، بفضل المقاومة المستمرة لقوات البربر و جيوش الروم. نجد في مقدمتهم مقاومة الكاهنة في جبال الأوراس، و مقاومة قوات كسيلة.
- صراع الخلافة الاسلامية مع الفرس و الروم في المشرق قد أثر بشكل كبير على توسعها في شمال إفريقيا.
- الصراع القائم داخل الخلافة الاسلامية قد أثر سلبا على قيادة الجيش الاسلامي في شمال إفريقيا، بسبب التغيرات المتتالية للقادة، و عدم الاستمرارية و الديمومة في القيادة.

الخوارج في شمال إفريقيا:

ارتبط انتشار الخوارج في شمال إفريقيا بعاملين أساسيين، وهما:

- التطور السياسي الحاصل للخوارج في المشرق العربي في أواخر القرن الأول، بعد فشل ثوراتهم و اضطراهم لاتباع أسلوب الدعوة و التنظيم السياسي.
- تقبل مذهب الخوارج في بعض الأوساط في شمال إفريقيا و احتوائه.

لقد تبنى الخوارج عقائد جد متطرفة، و قد قاد تطرفهم العقائدي و القصور الفكري و فشل ثوراتهم التي قاموا بها في العصر الأموي للبحث عن منفذ لهم. من ضمن الأفكار التي تبناها، تكفير عثمان بن عفان، و تكفير مرتكبي الكبائر، و الاجماع على جواز الإمامة لكل مسلم عالم بالكتاب و السنة، بالإضافة لاستخدام العنف للتأكد من موالاته أنصارهم، و صدقهم، و حسن نواياهم، و استخدامهم لاساليب التهريب أكثر من اساليب الترغيب. و لعل افتقاد الخوارج لزعامة قريشية ايضا من ضمن الأسباب الأساسية التي قادت لفشلهم، و

تشتتهم، و ضعفهم. حيث قاد الاختلاف في المسائل الفقهية فيما بينهم على ظهور العديد من المذاهب منها: الأزارقة، الإباضية، الصفرية، والنجدات. و غالبا ما كانت تحدد الانقسامات و الانشقاقات اثناء الحروب. و لقد استغل خصومهم هذا الشتات من أجل القضاء عليهم، عبر استخدام العديد من الوسائل في مقدمتها: التهديد، الترغيب، المراوغة، و الإقناع، و الإغراء بالمال و المناصب.

حشد معاوية بن ابي سفيان اهل الكوفة من أجل محاربة الخوارج، و تشير الدراسات التاريخية أنه جند كتائب الشيعة من مصر لقتالهم، فحاول أن يضعف الخوارج بالشيعة. اثمرت هاته السياسة مع ابنه زياد بن معاوية، فكانت القبائل إذا أحست أن شخصا من الخوارج أوثقوه و أتوه لزياد. لكن زياد بن معاوية استعمل أيضا أسلوب الهدايا من أجل استدراج الخوارج. أما ابنه عبيد الله، فقد اسرف في سياسة العنف ضد الخوارجو كان يقتل كل من يشبه فيه أنه من الخوارج، و لم تتغير هاته السياسة إلا في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز و الذي نجح في تقليص شدة العنف ضد الخوارج و تجميد نشاطهم من خلال الإقناع ، و لكن بمجرد وفاته، انتهت سياسته.

من ضمن الأسباب الإضافية و التي قادت لتوجه الخوارج نحو شمال إفريقيا، هو صراعات بين الولاة في شمال إفريقيا و التي نجم عنها زيادة العنف في المنطقة، و بالتالي قادت لثورة و معارضة من القبائل البربرية. خلال العهد الأموي، كان هناك صراع قبلي حول السيطرة بين كل من القيسية و اليمينية، و لقد انتقلت هاته الصراعات القبلية إلى غاية شمال إفريقيا. و المتعارف عليه تاريخيا أن الذين استقروا في المغرب العربي من اليمينية، و ساعدوا موسى بن نصير في إدارة ولايته بشمال إفريقيا. ولكن فيما بعد اشتدت الخلافات بين القبيلتين، و كلما وصل أحد منهم للحكم، يقوم بإلغاء و سجن اتباع الطرف الثاني. انشغل الولاة في شمال إفريقيا بالصراع حول السلطة و الصراعات القبلية و جمع الغنائم، و محاولة السيطرة على منافذ البحر الأبيض المتوسط، الأمر الذي سمح بامتداد و توسع الخوارج و تشكيل ما تعرف بممالك الخوارج.

من مذاهب الخوارج و التي توسعت بشكل كبير في شمال إفريقيا آنذاك: الصفرية و الإباضية. فقد قاد الخوارج العديد من الثورات من أجل توسيع نفوذهم في المنطقة بتحالف مع قبائل البربر. أدت الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية المتردية في شمال إفريقيا خلال التواجد الاسلامي، و زيادة الاضطهاد ضد قبائل البربر إلى تنامي دعم الخوارج المناهضين لولاة شمال إفريقيا. فقامت الدولة الصفرية في المغرب الأقصى، و التي استطاعت الاستقلال عن دولة الخلافة في القيروان. و قامت الدولة الرستمية التي تتبنى المذهب الإباضي في تهاوت او تيارت حاليا.

الدولة الرستمية:

تسمى الدولة الرستمية نسبة لمؤسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسي الإباضي. شكل نجاح الدولة الصفيرية في المغرب الأقصى حافزا للإباضيين من أجل تأسيس الدولة الرستمية في شمال إفريقيا، بعيد عن القيروان. تأسست تهرات عاصمة الدولة الرستمية في 779 م، و لقد اختار الإباضيون هذا المكان لغناه بالثروات الزراعية، و وجود مساحات واسعة للرعي. استعان عبد الرحمن بن رستم بالمساعدات المادية للإباضية في المشرق العربي، و استطاع بفضل هاته المساعدة بسط نفوذه على قبائل البربر. و لقد كان مهتما جدا بال عمران، و شق القنوات المائية، و إقامة المطاحن. كما قام ببناء الفنادق للتجار، و بهذا أصبحت تهرات عاصمة يقصدها التجار من مختلف الأرجاء، فارس، العراق، القيروان، الدولة الصفيرية في المغرب، و حتى من السودان.

نظم عبد الرحمن بن رستم الإدارة، و القضاء، و الشرطة، و إدارة بيت الصدقات على اساس المذهب الإباضي. و استطاع أن يؤسس القواعد الإدارية و المالية للدولة الرستمية. قبل وفاته، وصى عبد الرحمن بن رستم بتعيين مجلس الشورى، ليختار إمام الدولة من بين أعضائه. لكن، بعد وفاته، اندلعت الانشقاقات الداخلية بسبب الانقسامات و الخلافات الفقهية، القبلية، و الخارجية. و يمكن القول أن هناك ثلاثة عوامل اساسية مهدت لانحيار الدولة الرستمية في 909 م.

- كانت سياسة الإمام عبد الرحمن بن رستم قائمة على المساواة و عم التعصب لعصية معينة، و لكن بعد وفاته، اصبحت الإمامة قائمة على مبدأ الاختيار و فكرة التنصيب و التوريث، كما ظهرت سياسة تفضيل جماعة دون أخرى.
- ضمت الدولة الرستمية العديد من القبائل منها: هواره، سدراتة، لواتة. كان المبدأ الاساسي خلال المراحل الأولى من تأسيس الدولة الرستمية، هو تتبع المذهب الإباضي، و عدم التعصب لقبيلة أو توجه معين. لكن بعد عهد عبد الرحمن بن رستم انتشرت الخلافات القبلية بين القبائل بسبب التنافس على تعظيم الثروة.
- بسبب الانشقاقات المذهبية و الصراعات القبلية، اصبحت الدولة الرستمية ضحية للمذاهب الأخرى المنافسة، و التي تحاول إسقاطها، منها الشيعة.

